المرأة في الإسلام .. رؤية بيجوفيتش (٢)

محمد يوسف عدس

توقفنا في الحلقة الأولى عند هذه الفكرة: " ليس في مصادر الإسلام حكم يمنع -بصورة مباشرة- عمل المرأة ونشاطها خارج بيتها ، بل إن الأحكام الشرعية التي تقرر حق المرأة في الاستقلال بملكيتها في حالة الزواج.. وتؤكد حقها وحريتها في التصرف فيما كسبته أو ورثته من مال ، هذه الأحكام يمكن الاستناد إليها في إقرار حق المرأة في العمل . أضف إلى ذلك دلائل قاطعة من عصور الإسلام المختلفة شاركت فيها المرأة جنبا إلى جنب مع الرجل في الجهاد وفي الحياة الفكرية والأدبية".

وهنا ينبهنا علي عزت بيجوفيتش إلى خطورة التقليد الأعمى للغرب ويدعونا إلى التمييز بين جانبين متعارضين في الحضارة الغربية ولكنهما يختلطان في أذهان الكثيرمن الناس مما يؤدي بنا إلى تشوش في الأحكام والسلوك .

فالحضارة الغربية تتميز بروح العمل الدؤوب والتنظيم والانضباط والاهتمام بالبحث العلمي والتطوير التكنولوجي ، وهذا ما ينبغي أن يكتسبه المسلمون ويحرصوا عليه ويتقنوه . ولكن الغرب – من ناحية أخرى – ليس قدوة بأي حال فيما يتعلق بنظرته إلى الحياة وفلسفتها ولا فيما يتعلق بالاخلاق أو الحياة الاسرية ؛ وأسلوب الحياة الغربية في كل هذه الأمور يمثل أسوأ ما في الغرب ، إنه الجانب المريض في الحضارة الغربية ، وعلى المسلمين أن يحصّنوا أنفسهم ضده لا أن يتكالبوا عليه !

وفي كتابه الاعلان الإسلامي يركز "علي عزت النظر" على علّتين في الحضارة الغربية لابد من الانتباه إلى خطورتهما ، الأولى : تتعلق بوضع المرأة ؛ التي حولتها هذه الحضارة إلى شيء للاستمتاع به أو وثن للعبادة ، وفي كلتا الحالتين سلبتها شخصيتها التي بها وحدها يمكن أن تكون موضع تقدير واحترام ، كما أن إهمال الأمومة قد جرد المرأة من وظيفتها الاساسية التي لا يمكن تعويضها بأي وظيفة أخرى .

أما العلة الثانية : فتتمثل فيما تشهده الاسرة من انهيار مستمر ، وما يجري من تشكيك في قيم الاسرة ، والدعوة إلى الحرية الجنسية والانعتاق من قيود الدين والاخلاق .

وللأسف الشديد بدأت هذه الموجة الغربية تتسرب إلى بلاد المسلمين بجرأة غير معهودة على يد فئة غير قليلة العدد من النخب المثقفة متذرعة بحجة حرية الابداع، ولها نفوذ أدبي وإعلامي ظاهر وتحظى بدعم غير منكور من السلطات المهيمنة في هذه البلاد!

في مواجهة هذه التيارات الخطيرة يؤكد الإسلام انحيازه التام للأسرة .. هذا الشكل من اشكال الحياة الانسانية السويَّة ، ويضع لها الضمان الكافي لأمنها وسلامتها

واستقرارها ، فكما يقول علي عزت :"يحرص الإسلام على تأمين عش الزوجية وتجنيبه عوامل التخريب الجوانية والبرانية ، ومن ثم يحرِّم الخمر والإدمان والدعارة والهروب من المسئولية ، وبهذا يقوم عمليا بحماية المصالح الحقيقية للمرأة السويّة .. وبدلا من فكرة المساواة المطلقة يضمن الإسلام للمرأة الحب والحياة الزوجية الكريمة والاطفال وكل ما تعنيه هذه الأمور الثلاثة للمرأة" .

تعدد الزوجات: لم يكن تعدد الزوجات شيئا اخترعه الإسلام وإنما وُجد في جميع الحضارات على مدى التاريخ ، ومع ذلك فالتعدد في الإسلام ليس هو القاعدة إنما الاستثناء ، وهذا الاستثناء كان له ولا يزال مبررات انسانية واجتماعية وربما بيولوجية أيضًا . فهو ليس مرضا بل علاج أو وقاية من أمراض خطيرة .
ولكن علي عزت لا يخوض في هذه القضايا ، وانما يركز على نقطة واحدة ، فالغربيون قد دأبوا على توجيه نقد شديد إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام بسبب تعدد الزوجات ، وترتفع اليوم عاليا نبرة هذا النقد في إطار الحملة العالمية لحقوق المرأة.
.
ويرى علي عزت أن هذا النقد بالذات هو أبرز دليل على نفاق الغربيين ، حيث تشير الاحصاءات إلى أنه بين كل ألف زيجة في العالم المسلم هناك حالة واحدة من تعدد الزوجات، بينما تشير الدراسات في الغرب إلى أنه [بين كل ألف رجل متزوج هناك زوج واحد لم يخن زوجته مع امرأة أخرى] . ومعنى هذا أن الغرب قد اكتفى بأحادية الزواج نظريا فحسب!!

وفي هذا الصدد يشير علي عزت إلى كتاب للمؤلف الأمريكي"إروين واليس" بعنوان "سبع وعشرون امرأة"- يؤكّد فيه عن ضخامة حالات التعدد السري للزوجات والأزواج ، والحقيقة أن مادة الكتاب كلها مؤسسة على المعلومات العلمية الدقيقة التي سجلتها دراسة هذه الظاهرة في المجتمع الامريكي .

المسألة إذن هنا ليست مقارنة بين زوجة واحدة في الغرب وتعدد زوجات في بلاد المسلمين، وانما هي المقارنة بين حالات محدودة من التعدد المشروع في العالم المسلم وبين ظاهرة مستشرية للتعدد السري في الغرب ، فليس في الغرب قيود على العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء بينما الزنا محرم تحريما قطعيا في الإسلام .

لا يمكن لدارس عاقل إلا أن يتفق مع هذه الحقيقة التي كشفها بيجوفيتش وشرحها بأبلغ بيان ؛ ودعّمها بالإحصاءات الرقمية من مصادرها الموثَّقة .. ولنا أن نستنتج مثله: أنه مهما كان الأمر فإن مشكلة التعدد -مشروعة كانت أو سرية- هي مشكلة معقدة ولكن يمكن أن نقرر بكثير من الاطمئنان أن التعدد – على مشروعيته – سوف يقل في المجتمعات المسلمة ، أما في الغرب فإن السلوك الزواجي غير الملتزم والتعدد المحرم قد أصبح طابعا عامًّا للحياة لا يزول إلا بزوال المجتمع نفسه !

الحقوق المشروعة: يمضى على عزت بيجوفيتش في ثبْر أغوار قضية المرأة المسلمة ؛ فنراه يأخذ دور الاصلاحيّ الناقد لأوضاع المرأة المتردية في بلاد المسلمين فيقول: "ليس لأحد حق الاحتجاج بالاسلام للإبقاء على النساء محرومات من حقوقهن المشروعة ، ولابد من وضع حد لأي استغلال يمارس على المرأة في المجتمعات المسلمة " .
ويؤكد أن وجهة نظره هذه لا علاقة لها بأفكار الحركة النسائية في الغرب ، إذ يصفها بأنها اتجاه لفرض قيم وأهواء قِلّة من عناصر القيادات النسائية الفاسدة ، كما يؤكد أن وجهة نظره لا تمثل فكرة المساواة المطلقة بين الجنسين بالمعنى الغربي ، انما هي تأكيد على أمرين أساسيين في الإسلام:

أولا- إبراز القيمة المتساوية للرجل والمرأة كما أقرها القرآن بشكل قاطع .. ويستشهد بهذه الآيات القرآنية الكريمة:
آية ٩٧ من سورة النحل : {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ..
وآية ١٢٤ من سورة النساء: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} ..

ثانيا- تأكيد على أن العلاقة الشرعية الوحيدة بين الرجل والمرأة هي الزواج ، وهي علاقة إنسانية راقية يصفها القرآن في هذه الآية:
{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }سورة الروم- آية ٢١..
ففي الزواج يتحقق للمرأة الأمومة والكفالة والذرية التي تسعد بها الأسرة وتتم بها مقاصد الشريعة في عمارة الأرض- التي استخلف الله فيها الإنسان ؛ فلا سفاح ولا بغاء ولا زنا ، فهذه العلاقات الشاذة كلها محرمة في الإسلام تحريمًا قاطعًا ، لأنه لا يمكن بناء حياةٍ صالحة ولا أسرة سوية ولا مجتمع سليم- عليها..

علاقة الرجل بزوجته -كما اتضح- هي علاقة حب وودٍّ وتكريم وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بحسن معاملة المرأة في أحاديث كثيرة منها هذا الحديث: {خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي}.
" ولا أحد يستطيع أن ينكر أن للمرأة المسلمة دور لابد من أدائه وهو إنجاب أجيال جديدة وتنشئتها على الثقة في الإسلام وفي المستقبل ، وهي تستطيع القيام بهذا الدور إذا أُحْسِنَ تعليمها وكانت متمسكة بأخلاق الإسلام . وسوف تساهم المرأة المسلمة في النهضة الإسلامية بقدر ما تساهم النهضة في تربية المرأة وتعليمها .. وتنشئتها ".
على النقيض من هذا تمامًا تتجه الحضارة الغربية إلى تدمير الأسرة ، والقضاء على العلاقات الزوجية السويّة بين الرجل والمرأة ؛ تفعل هذا بكل قوّة في المجالين النظري والعمليّ على السواء ؛ واقرأ ما تقوله الفيلسوفة الفرنسية "سيمون دى

بوفوار" أكبر داعية لتحرير المرأة في أوربا .. إنها تقول: "ستظل المراة مستعبدة حتي يتم القضاء علي خرافة الاسرة وخرافة الامومة والغريزة الأبوية" ..

غابت الأُم من البيت وتخلت عن واجبها التربوى فهي تلد فقط ..أما التربية فتتولاها الحضانة التي لا تربي إنسانا بل تنشئ عضوا في المجتمع: يشارك في إنتاج السلع، ويتكالب على استهلاكها .. فبدلا من التربية والتنشئة الانسانية نواجه عملية تكنولوجية ؛ كأننا بإزاء عملية انتاج دواجن في محاضن كهربائية.!.

وترتفع علي راس هذه المجتمعات العبارة الماركسية الشهيرة كما وردت في كتاب "راس المال": إن الأطفال من كلا الجنسين يجب حمايتهما من الأبوين..!" – وماركس يقصد أنه على الدولة أن تنتزع الأطفال من أحضان أمهاتهم لتتولى الدولة تربيتهم بطريقتها الخاصة ؛ لتحصل على كائنات متماثلة ، ينتمون فقط إلى فلسفة الدولة الشيوعية ، وليتحوّلوا إلى أدوات لتنفيذ خططها ..

فلا غرابة في هذه الاجواء أن تكره المرأة عملية الحمل والولادة التي تجبرها على الانقطاع عن العمل ، وتعوق انطلاقها لتحصيل المتعة الحرام مع من تشتهى من الرجال .. وهكذا تنهار نسبة المواليد حتى تصل المجتمعات الغربية إلي درجة الصفر في النمو وتزداد أعداد المرضى بأمراض عقلية .. ويحدث هذا في أكثر بلاد الدنيا غنًى وصحة..!
وأبعد من هذا انحرافًا بالطبيعة البشرية- ما يكشفه لنا معهد استكهولم للبحوث الاجتماعية الذى نشر نتائج دراسة مسحية أجراها سنة ١٩٧٢م نعرف منها أن النساء اللائى يذهبن الي دور الدعارة -في أكثر الحالات- نساء ميسورات الحال .. وإنما أصبحن مدمنات للدعارة فقط لأنّهُنَّ يستعذبن هذا الأسلوب من أساليب الحياة السائبة.

وكما رأينا: كان الرجل أول من هجر الأسرة وذهب يبحث عن علاقات محرّمة في مجتمع يشجّع على العلاقات السائبة بين الرجال والنساء ، ثم خرجت المرأة إلى العمل ، متخلية عن واجباتها ومسؤولياتها تجاه الانجاب والأطفال ، في مجتمع يحتقر الأمومة ويعتبر الأمهات عناصر غير منتجة . وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأوضاع الشاذة-اللّاإنسانية واللاأخلاقية- إنتشار الطلاق وانفصام عُرَى الأسرة وهروب الاطفال من البيوت ؛ ليشكّلوا عصابات إجرامية ، ومجموعات من المشردين في الشوارع بلا هدف ولا مأوى.

هذه الاتجاهات المدمرة ، في الفكر آخذة اليوم في التصاعد والانتشار في مصر تتولاها طائفة من كبار المهرطقين والملاحدة ، يحتضنهم وييسر لظهورهم في أجهزته الإعلامية ، أكبر مهرطق متبجّح تولى السلطة في مصر ، منذ نابليون في أواخر القرن الثامن عشر حتى اليوم .

ولعلّنا نحتاج إلى ثبْر أغوار هذه الحملة الانقلابية الخطيرة -التى تأتى من الداخل - والكشف عن أبعادها النظرية والعملية ، مسترشدين بفكر فيلسوف الإسلام على عزت بيجوفيتش .. وأرجو-إن شاء الله- أن أتمكّن من هذا في الحلقة الثالثة و الأخيرة لهذا الموضوع.

(نشرت المقالة بجريدة الشعب في ٢٨مارس ٢٠١٧)